

الشيخ الطوسي؛ الرائد في اعتبار العقل مرجعاً في الآراء التفسيرية

أ.م.قاسم درزی

جامعة الشهيد بهجتي / ايران

خلاصه

يعدّ الشيخ الطوسي في العالم الاسلامي من رواد الاتجاه العقلي في التفسير وكان المسلمون يتفقون على كون الشيخ رائداً في هذا المجال قبل أن يتعرفوا على الوزير المغربي (م. ٤١٨) الذي كان يعيش قبل الشيخ ويرّوج منهج التفسير العقلي. ومن جهة أخرى يعدّ الشيخ موسّساً لحوزه النجف الدينية وهذا الأمر يتمتع بأهمية أيضاً. من تراث الشيخ الفكري الذي قلّ الاهتمام به، آراءه التفسيرية التي تكشف لنا براعته وذكاءه في المباحث العقلية بل العلمية. تعتبر نظريتنا «كروية الارض» و «الصرفة» من مواقفه وإتجاهاته التفسيرية وتدّلان على كمال ذكاءه ومرجعيته وتقدّمه في عصره. ورغم أنّ هيئة بطليموس كانت تسود المنهج العلمي وتسيطر على الأجواء العلمية ولم تكن هناك أدلة قاطعة على كروية الارض خالف الشيخ بعض المفسرين كابى الحسن البخى (م. ٣٢٥ق) الذي كان يصرّ على كون الارض مسطّحة وكان يرى نظريته هذه؛ مناسبة للآيات القرآنية فخالفه الشيخ واعتبر الادلة العقلية اكثر تلأثماً لكروية الارض و في مبحث الصرفة اعتقد زميله واستاذه السيد المرتضى بالصرفه في كتابه الهامّ «الموضح عن جهة اعجاز القرآن» ولكنه مع ذلك خالفه بصراحة وأردف أدلة مقبولة لدى العقل لنقده. فهذان الموضوعان يعتبران أدلة تقنع أنّ الشيخ كان رائداً في المنهج العلمي وفي نقد آراء الذين كانوا يعاصرونه من السنة والشيعة ومن هنا يتبين أنّ الشيخ كان مرجعاً علمياً في العالم الاسلامي ليس في الشيعة فحسب الكلمات المفتاحية: الشيخ الطوسي؛ الوزير المغربي؛ المرجعية العلمية؛ حوزة النجف؛ كروية الارض؛ نظريه الصرفة.

١- محمدبن الحسن الطوسي رائد التفسير العقلي في العالم الاسلامي

تشير وجهة نظر الشيخ الطوسي في تفسير الآيات القرآنية، وبخاصة الآية ٢٢ من سورة البقرة، ونظرية الصرف، إلى أن وظيفته الرئيسية في سلطة الشيخ الطوسي هي أن يعرف أنه رائد في التفسير العقلاني للقرآن في العالم الإسلام. قبل الشيخ ، عالم القرآن الوحيد ، الذي يمكن التنافس معه حول هذا الموضوع، هو الوزير المغربي (م ٤١٨ هـ) . تفسيره "المصابيح في تفسير القرآن" هو واحد من أهم مصادر الشيخ في تجميع "التبيان في تفسير القرآن".

وبصرف النظر عن النقاط المذكورة أعلاه ، فإن مكان تفسير "التبيان" في بناء المنهج العقلاني والاجتهادي لتفسير الآيات القرآنية واضح جداً. لا يولي الشيخ الطوسي ، في تفسيره القيمة، الكثير من الاهتمام بالروايات التفسيرية، على عكس التفسير السابقة. هو يتم النظر في قراءات ومعاني الكلمات، وقد استخدمت المصادر الهامة للسنة، مثل تفسير الطبري وروايات الصحابة و التابعين، في الوصول إلى معنى وتفسير الآيات. كل هذه أدوات لاستنباط وترجمة المترجم من الآيات القرآنية. يدخل الشيخ الطوسي بالضرورة المناقشات اللفظية والعقلانية عند الضرورة، موضحاً مواقفه في مثل هذه المناقشات.

نفس المنهج العقلاني والاجتهادي و قيادة الشيخ الطوسي فيه، تُبيّن شكل مواجهته، مع الآية ٢٢ من سورة البقرة وهو يفسر كيف تمكن التبيان من تقديم طريقة دقيقة للاجتهاد والاستدلال. وجهة نظر الشيخ إلى كروية الأرض وعدم الدخول في مناقشات فكرية ولفظية حول هذا الموضوع جعل اجتهاده لا تزال غير قابلة للجدل ومشكلة. لكن كثير من أسلافه، أقرانه وأتباعه لم يعيروا بالضرورة الانتباه إلى مثل هذه النقاط المنهجية الهامة، وبالتالي، فقد وقعوا في شرك الأخطاء الكبيرة. كانت الدقة المنهجية للشيخ طوسي في الإشارة إلى القرآن وتفسيره العقلاني واحدة من الأسباب المهمة لتأسيس سلطته في العالم الإسلامي، وليس فقط الشيعة. من بين القضايا التي يمكن أن تصور

بدقة سلطة الشيخ طوسي، فإن نوع اللقاء معه بالنظرية الصرفة مهم جداً. سنشرح الآن كلا الموضوعين:

٢- الشيخ الطوسي و فراش [و كروية] الارض

كما أشار الشيخ الطوسي، يعتقد أبو علي الجبائي وأتباعه أن "فراش" الأرض في الآية ٢٢ من البقرة: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ»، تدلُّ على أنَّ الأرضَ بسيطةً و ليس بجدير ان يكون كُرَّةً:

«و استدل ابو علي الجبائي بهذه الآية، على أن الأرض بسيطة ليست كرة كما يقول المنجمون و البلخي بأن قال: جعلها فراشاً. و الفراش البساط بسط الله تعالى إياها. و الكرة لا تكون مبسوطه. قال: و العقل يدل ايضاً على بطلان قولهم، لأن الأرض لا يجوز أن تكون كروية مع كون البحار فيها، لأن الماء لا يستقر إلا فيما له جنبان يتساويان، لأن الماء لا يستقر فيه كاستقراره في الأواني. فلو كانت له ناحية في البحر مستعلية على الناحية الأخرى، لصار الماء من الناحية المرتفعة الى الناحية المنخفضة. كما يصير كذلك إذا امتلأ الإناء الذي فيه الماء. و هذا لا يدل على ما قاله، لأن قول من قال الأرض كروية، معناه إن لجميعها شكل الكرة.» (طوسي، بي-تا، ١٠٢-١٠٣)

هذا العبارة تحتوي على العديد من النصائح: أولاً ، خلال زمن الشيخ الطوسي ، كانت هناك مجموعات وآراء مختلفة حول كروية الأرض أو تسطحها. كان هناك رأي مشترك في علم الفلك كان مراقباً على كروية الأرض، لكن بعض المتكلمين، وخاصة المعتزلة، اعتبروا هذا الرأي غير مكشوف كسطح الأرض. ثانياً، حذر الشيخ الطوسي في اختيار نظرية مختار جدير بالثناء. عندما يقبل الشيخ كُرَّةُ الأرض، يعترف بالقدرة على العيش فيه. هذا النهج الحذر و ذو الدقة، لا يرى في عيون بعض معاصريه، وبالتالي أدى إلى أخطاء كبيرة. يبدو أن نظرة إلى آراء سيد مرتضى في هذا الصدد مهمة.

انتقد السيد المرتضى، الأستاذ و التلميذ الشيخ طوسي ، وجهة نظر أبو علي الجبائي، و يراه مخالفاً للرأي السائد في علم الفلك لكن حذر الشيخ الطوسي لا يعبر عن رأيه و بينما تقبل كروية الأرض، فإنها تقبل أيضاً التسطيح للأجزاء الصالحة للبشر للبشر: «و قال الشريف الأجل المرتضى قدس الله روحه استدل أبو علي الجبائي بقوله تعالى: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا» و في آية أخرى «بَسَاطًا» على بطلان ما يقوله المنجمون من أن الأرض كروية الشكل قال و هذا القدر لا يدل لأنه يكفي من النعمة علينا أن يكون في الأرض بسائط و مواضع مفروشة و مسطوحة و ليس يجب أن يكون جميعها كذلك و معلوم ضرورة أن جميع الأرض ليس مسطوحاً مبسوطاً و إن كان مواضع التصرف فيها بهذه الصفة و المنجمون لا يدفعون أن يكون في الأرض سطوح يتصرف فيها و يستقر عليها و إنما يذهبون إلى أن جملتها كروية الشكل.» (علم الهدى، ٤٣١ق، ٣١١/١؛ همچنين: طبرسي، ١٣٧٢، ص ١٥٦)

هو على الرغم أنه يقبل كروية الأرض وينتقد نهج الجبائي، ولكن في مكان آخر، ينص صراحة على أن "فراش الارض" ترتبط بسكونه. هو يقول:

«و معنى قوله تعالى: جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا أي يمكن أن تستقرّوا عليها و تفرشوها و تتصرّفوا فيها؛ و ذلك لا يمكن إلّا بأن تكون مبسوطة ساكنة دائمة السكون.» (علم الهدى، ٤٣١ق، ٣١١/١).

بعد ذلك، نرى أيضاً أن الإمام فخر الرازي، بعد عدة قرون من الشيخ الطوسي، واجه مشاكل أكثر وأعمق من السيد المرتضى في دخول تفسير هذه الآية. هو يؤكد مراراً وكراراً أن الأرض ثابتة و غير متحركة، وأنها تنتج أيضاً حججاً سخيفة:

«اعلم أنه سبحانه و تعالى ذكر هاهنا أنه جعل الأرض فراشاً، و نظيره قوله: أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَ جَعَلَ جَلَالَهَا أَتْهَارًا [النمل: ٦١] و قوله: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا [الزخرف: ١٠] و اعلم أن كون الأرض فراشاً مشروط بأمور: الشرط الأول: كونها ساكنة، و ذلك لأنها لو كانت متحركة لكانت حركتها إما بالاستقامة أو بالاستدارة،

فإن كانت بالاستقامة لما كانت فراشاً لنا على الإطلاق لأن من طفر من موضع عال كان يجب أن لا يصل إلى الأرض لأن الأرض هاوية، وذلك الإنسان هاو، والأرض أثقل من الإنسان، و الثقيلان إذا نزلا كان أثقلهما أسرعهما و الأبطأ لا يلحق الأسرع فكان يجب أن لا يصل الإنسان إلى الأرض فثبت أنها لو كانت هاوية لما كانت فراشاً، أما لو كانت حركتها بالاستدارة لم يكمل انتفاعنا بها، لأن حركة الأرض مثلاً إذا كانت إلى المشرق و الإنسان يريد أن يتحرك إلى جانب المغرب و لا شك أن حركة الأرض أسرع فكان يجب أن يبقى الإنسان على مكانه و أنه لا يمكنه الوصول إلى حيث يريد، فلما أمكنه ذلك علمنا أن الأرض غير متحركة لا بالاستدارة و لا بالاستقامة فهي ساكنة» (فخر رازي ٤٢٠ق، ، ٣٣٦/٢).

يحدد فخر الرازي، في هذه التعابير، شروط لتبيين "فراش" و "بساط" الأرض، و أنّ أهمها هو سكون كرة الأرض. بعد ذلك ، يجادل باقوالٍ سخيفة لإثبات سكون الأرض، ويلاحظ بشكل كامل استخدام الحجج المنطقية والشفهية بدلا من الأساليب المبررة في معرفة الكوسمولوجيا. ويعتبر الشيخ الطوسي أيضا كميّار لهذا.

بمقارنة موقف المفكرين مثل أبو علي جبائي، شريف المرتضى ، و الإمام فخر الرازي حول موضوع كروية الأرض و سكونها مع وجهة نظر مختار الشيخ الطوسي، من المعروف أن الشيخ، بمسح واهتمام للحظات المنهجية للملائمة أخطاء ارتكبت.

إن الشيخ الطوسي، في موقع المعرفة الكونية التي ليست مجرد مجموعة أدوات عقلية كافية، بدلا من المواقف العقلانية للفلاسفة و المتكلمين، أكثر ميلاً إلى موقف علماء الفلك. هذه النقطة التي تظهر نفسها أكثر حول المكانة الهامة للشيخ طوسي في علم الكلام و الفلسفة. يبين هذا البحث أن الشيخ الطوسي هو المنشئ للتفسير العقلاني في العالم الإسلامي ولا يمكن العثور عليه قبل التعليق الشامل، والذي، بالإضافة إلى التقاليد ، استخدم أيضاً استدلالاً عقلانياً لفهم محتوى الآيات القرآنية.

٣- نظرية الصرفه، الشيخ الطوسي، والمرجعية الإسلامية

نظرية الصرفه هي النظرية الأولى حول قضية المعجزة القرآنية. النظام هو أول شخص وافق صراحة على هذه النظرية. لكن من قبله، كان معلمه أبو الهذيل العلاف (متوفى ٢٢٧ م) ، بينما يقبل نظرية الانسجام القرآني باعتباره معجزة هذا الكتاب الإلهي، يشير إشارة سريعة إلى المناقشة:

«قد علمنا أنّ العرب كانت اعرف بالمتناقض من الكلام من هولاء المخالفين و كانت على ابطال أمر رسول الله احرص و كان(ص) يتحداهم بالقرآن و يقرعهم بالمعجز عنه و يتحداهم بأنّه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً و يُورد ذلك عليهم تلاوه و فحوى لآته كان (ع) ينسبه الى آته من عند الله الحكيم و أنّه مما لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه و يُدعى أنّه دلالة و أنّ فيه الشفاء فلو كان الامر فى تناقض القرآن على ما قاله القول لكانت العرب فى آيامة الى ذلك اسبق فلما رايناهم قد عدلو عن ذلك الى غيره من الامور، علمنا زوال التناقض عنه و سلامته على اللغة.»(قاضى عبدالجبار، المغنى، ٣٨٧/١٦).

مضمون الجمل لا يعتمد على نظرية فعالة من حيث التكلفة. لكن تلميذه، أبراهيم بن سيار نظام (م. ٢٣٠ق) يعترف صراحة بأن الأطروحة الرئيسية في المعجزة القرآنية هي نظرية مكلفة. بالطبع ، فهو يقبل أخبار الغيب على أنها معجزة، لكن قلّة آيات القرآن التي ترتبط بنقاش "اخبار عن الغيب" ، تجعل النظرية حول معجزة القرآن دائماً قضية ثانوية وقاصرة. مع الاسف لم يلفت انتباهنا أي من كتب النظام، وقد وصلنا معظم ما نعرفه عنه من خلال أبو الحسن الأشعري. هو فيما يتعلق بنظرية القيمة المضافة للنظام ، يقول:

«و قال النظام الآيه و الأعجوبة فى القرآن، ما فيه من الاخبار عن الغيوب. فأما التأليف و النظم، فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أنّ الله منعهم بمنع و عجز احدهما فيهم»(ابوالحسن اشعري، مقالات الاسلاميين، ٢٧١/١).

كما هو واضح في هذا التعريف، فإن النظرية الصرفة هي ذات معارضة تامة لنظرية النظم والتأليف القرآن. باعتقاد النظام، بخلاف المشهور الذين يعتقدون أن الجانب الرئيسي لمعجزة القرآن الكريم هو النظم والتأليف وفصاحته، هناك إمكانية وقدرة على جلب مثل هذا التأليف والنظام. لكن حقيقة أن هذا لا يحدث في الواقع هو أن الله يمنع ذلك من القيام بذلك، وأولئك الذين لديهم الإرادة للقيام بذلك سيكونون عاجزين.

جاحظ (م. ٢٥٥ق) ، تلميذ النظام، هو أول منتقد لنظرية الصرفة و باحث نظري ضليع لنظرية النظم القرآني. على الرغم أن جاحظ هو ناقد لنظرية النظام، لكن رداً على سبب عدم وجود إمكانية لتحقيق النظم القرآني؟ أعرض نظرية الصرفة كسبب:

«و مثل ذلك ما رفع من أوهام العرب و صرف نفوسهم عن المعارضه للقرآن بعد أن تحدّاهم الرسول بنظمه، و لذلك لم نجد أحداً طمع فيه، و لو طمع فيه لتكلّفه...» (جاحظ، الحيوان، ٣١/٤).

جاحظ، رداً على هذا السؤال بانه كيف يمكن أن يكون لدى الناس القدرة على فعل ذلك، لكن الله صرفهم عن هذا؟ تجول قصة تحير بنى اسرائيل فى الوادى التيه فى القرآن الكريم:

«فقد كانوا يكسعون اربعين عاماً فى مقدار فراسخ يسيره و لا يهتدون الى المخرج. و ما كانت بلاد التيه إلا ملاعبهم و مُتَنَزَّهاتهم ... و لكنَّ الله صرف أوهامهم و رفع القصد من صدورهم» (المصدر، نفسه).

من الواضح أنه من وجهة نظر الجاحظ، فإن الصرفة عنصر الحماية لمعجزة النظم القرآني. لكن شريف المرتضى هو بلا شك أهم منطري نظرية مع اتصال النظرية الصرفة. أهمية السيد مرتضى هو أنه ، خلافاً للأسلاف ، لا يقتصر على التعميمات في هذا المجال، لكنه عمل بجد لتوفير هذه النظرية بطريقة واضحة و منقحة. يقدم الشريف المرتضى أولاً وجهات نظر المتكلمين بشأن نظرية الصرفة:

«أما اصطلاح الصّرف و الصّرفة عند المتكلّمين، فمعناه أنّ الله تعالى سلب دواعيهم إلى المعارضة، مع أنّ أسباب توقّف الدواعي في حقّهم حاصلّة.» (الموضح عن جهه اعجاز القرآن، ص ١١).

وبالطبع، فإن وجهة نظر سيد المرتضى فيما يتعلق بهذه النظرية تشبه إلى حد بعيد وجهة نظر علماء المتكلمين، وإن كان ذلك بمزيد من التفاصيل. ملخص النظرية هي: « أنّ الله تعالى أراد أن يثبت أن القرآن منزل من عنده و ليس من اصطناع البشر، فصّدّ العرب عن معارضته و دفعهم عن مجاراته، أي أنّه منعهم منعاً قهريّاً أن يأتوا بمثل القرآن، و صرفهم عنه صرفاً مقصوداً يدركون معه أنّهم معجزون أمامه، على الرغم من وفرة قدراتهم البيانيّة و براعتهم في القول.» (الموضح عن جهه اعجاز القرآن، المقدمة، ص: ٨)

يعتقد شريف المرتضى أن القرآن الكريم مؤلف من نفس الكلمات والجمل التي كانت شائعة بين أهل الرسول المعاصرين و من أجل الفصاحة والبلاغة، على الرغم من كونها فريدة من نوعها لكنها كانت قريبة مما كان في ذلك الوقت. لذلك، لا يمكن اعتبار معجزة القرآن الكريم معجزة نفسية ذاتية، ولكن السبب الخارجي لا يجعل أحداً يجلبها على هذا النحو. وهذا يعني أيضاً أن الله يأخذ الدوافع اللازمة لمثل هذا الشيء:

«و يمكن تبیین و تفسیر کلام القائلین بالصّرفة بأنّ القرآن الكريم يتكوّن من مجموعة من الكلمات و الحروف قد سطرّت و نظمت بنظم خاص. و هذا النظم مهما علا شأنه و فارق سائر نظوم الكلام، فإنّه بنفسه لا يمكن أن يكون معجزاً بحيث يعجز من تحدّي به عن الإتيان بما يقاربه. نعم، إنّهُ يعدّ معجزة و معجزاً حينما يسلب الله سبحانه و تعالى دواعي الكفّار و غيرهم عن معارضته، فإعجاز نصّ القرآن لا لنفسه و ذاته، و إنّما لسبب خارجيّ طرأ على بعض الناس، و هم الذين قصدوا المعارضة و حاولوا إتيان ما يقاربه في النظم، و لو لا ذلك لاستطاعوا مجارة سور القرآن و آياته و الإتيان بما يقاربهما في الشّبه. و هذا الطارئ الخارجيّ، و تثبيط عزائم القاصدين للمجارة، و

قبول التّحدي، هو في نفسه إعجاز خارق للعادة. و ذهب جماعة إلى أنّ هذا الرأي يعدّ أخطر و أجراً ما قيل في هذا المجال.» (الموضح عن جهة اعجاز القرآن، ص ١١)

يوضح شريف المرتضى بالتفصيل في كتابه الهام، الموضح عن جهة اعجاز القرآن، تفاصيل النظرية. ولكن في كتابه الآخر، نفائس التاويل، يمكننا العثور على تفاصيل أخرى في هذا الصدد. يقترح في هذا الكتاب فكرة أنه يقع التحدي على شيء يُمكن على المخاطب الإتيان بمثله. كما يشير فحوص وضع جمهور النبي إلى أن لديهم مثل هذا الاحتمال. لكن السبب الرئيسي في عدم تمكنهم من اتيان بمثل القرآن هو أن الله قد منعهم عن فعل ذلك:

«أنا قد بيّنا المطلوب في المعارضة ما قارب في الفصاحة و الأفضح يقاربه في كلامه و فصاحته من هو دون طبقته، بهذا جرت العادات، فإذا لم يماثلوا و لم يقاربوا فقد انتقضت العادة، و إذا كان المذهب الصحيح الذي يستدلّ على صحّته بمشيّة الله تعالى هو مذهب الصّرفة، فإنّما وقع التّحدّي بأن يأتوا من الكلام بما هو في تمكنهم منه، و قدرتهم عليه معلوم من حالهم، و أنه كان متأتياً غير متعذّر بمجرى عادتهم، فإذا لم يفعلوا فلأنهم صرفوا.» (تفسير الشريف المرتضى، ج ١، ص: ٣٢٢).

لذلك ، يعتقد أن دراسة الوضع الحالي للقرآن على جودة البلاغة و الفصاحة و النظم يدل على أنه لا يوجد تمييز واضح بينهما. كما نريد أن نعرف القرآن الكريم بهذه الطريقة خارق للعادة. لذا ولماذا لا يمكن لأحد أن يأتي بمثله؟ الجواب هو أن الله قد نهيهم عن فعل ذلك:

«أنه لو كان القرآن خارقاً للعادة بفصاحته لوجب أن يكون بينه و بين كلّ كلام يضاف إليه التفاوت الشديد و الشاق البعيد كما يكون بين ما هو معتاد و ما هو خارق للعادة، فكان لا يشتبه فصل ما بينه و بين ما يضمّ إليه من أفصح كلام العرب على ما لا يشتبه عليه الفصل بين الكلامين الفصيحين بينهما من التفاوت دون ما بين القرآن و غيره. و قد علمنا أن أحدنا يفصل بلا رؤية و لا فكرة بين شعر الطبقة الاولى من الشعراء و

بين شعر المحدثين، و لا يحتاج في هذا الفصل إلى الرجوع إلى ذوي الغايات في علم الفصاحة. و معلوم أنه ليس بين كلام فاضل الشعراء و بين كلام مفضولهم القدر الذي بين المعتاد و الخارق للعادة. و إذا ثبت ذلك و كنا لا نفرق بين بعض قصار سور المفصل و بين أفصح شعر العرب و أبرع كلامها، و لا يظهر لنا تفاوت ما بين الكلامين الظهور الذي قد بينّا، فما بالنّا نميّز الفصل القليل و لا نميز الكثير، و يرتفع الالتباس علينا مع التفاوت و لا يرتفع مع التفاوت.» (تفسير الشريف المرتضي، ج ١، ص: ٣٢٦)

صحيح أن سيد مرتضى يطرح نظرية الصرفه كنظرية صحيحة في معجزة القرآن، لكن يجب وضع النقاط فيما يتعلق بنظريته:

١. الآية القرآنية هي معجزة وتشير إلى نبوء النبي (ص)؛
 ٢. فصاحه القرآن الكريم هي ايضاً خارق للعادة؛
 ٣. يتميز القرآن أيضاً عن غيره من أشكال النظم، لكن نظريه النظم لا يكفي للردّ على التحدي، بدلا من ذلك، يجب القيام به للبلاغة والنظم ، على حد سواء. لأن التحدي تقع على الفصاحة و الإتيان بمثل فصاحه القرآن، لذلك فإن النظم مع الفصاحه أمر ذو مغزى وليس لوحده؛
 ٤. أي شخص أراد الإتيان بمثل القرآن الكريم، منعه الله من العلوم التي يحتاجها لمثل هذا الشيء، ولم يتمكن من العثور على الشخص الذي أراد أن يكون مثل القرآن؛
 ٥. الصرفه ليس معجزة بحد ذاتها بل هو سبب للوجود المعجز للقرآن.
- كان المقصود من المقدمة المفصلة نسبياً فقط جلب المؤمنين إلى نظرية الصرفه والتفاصيل التفصيلية عنها. كان المقصود من كل هذا شرح الموقف المختلف للشيخ طوسي في هذا الصدد:
- وجهة نظر الشيخ الطوسي مرتبطاً بالنظرية الصرفه

عمل الشيخ الطوسي بشكل مختلف جداً في الاتصال مع نظرية الصرف في كُتبه. يذهب الشيخ أولاً وفي كتاب "الجمال" بشكل جيد إلى درجة أنه قبلت النظرية الصرفية لكن في كتابيه "الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد" و «الاقتصاد الهادي الى سبيل الرشاد»، يتبنى منهجاً نقدياً تماماً لهذه النظرية. هو في توجيه هذا التناقض يقول: إنه في كتاب "الجمال" سعى إلى شرح محتويات أستاذه، شريف المرتضى، يقتضى الادب ان لا يكون معارضة واضحة لديه و لنظرياته. الآن، أولاً، سنقدم تفاصيل أكثر دقة عن منظور الشيخ الطوسي، وفي النهاية سنوضح مدى بروز وجهة نظره. الشيخ يرى في البداية وجهات نظر مختلفة متعلّقة بأعجاز القرآن ثم يختار النظرية الصحيحة:

«كان المرتضى علي بن الحسين الموسوي رحمة الله عليه يختار ان جهة اعجازه الصرفية، و هي ان الله تعالى سلب العرب العلوم التي كانت تتأتى معها لهم الفصاحة التي هي مثل القرآن [...] و قال قوم: جهة الإعجاز الفصاحة المفرطة التي خرقت العادة من غير اعتبار النظم. و منهم من اعتبر النظم و الأسلوب مع الفصاحة و هو الأقوى. قال الفريقان إذا ثبت أنه خارق للعادة بفصاحته، دل على نبوته، لأنه إن كان من فعل الله فهو دال على نبوته، و إن كان من فعل النبي (ص) فالنبي لم يتمكن من ذلك إلا بعلوم فيه خارقة للعادة تدل على نبوته. فاذا قال إنه من فعل الله دون فعلي قطعنا على انه من فعل الله لثبوت صدقه. و قال قوم هو معجز لاختصاصه بأسلوب مخصوص ليس في شيء من كلام العرب. و قال قوم: تأليف القرآن و نظمه مستحيل من العباد كاستحالة الجواهر و الألوان. و قال قوم كان معجزا لما فيه من العلم بالغائبات. و قال آخرون: كان معجزا لارتفاع الخلاف و التناقض فيه مع جريان العادة بأنه لا يخلو كلام طويل من ذلك.» (الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، ص: ٢٧٧-٢٧٨)

في الفقرة نرى أن الشيخ الطوسي يشير باختصار إلى جميع الآراء المرتبطة بمعجزة القرآن الكريم وفي بعض الأحيان يشير إلى ما هو أكثر ملاءمة لوجهته. ولكن بعد تقديم

هذه الآراء بشكل صريح يقول، فإن أقوى وجهة نظر لها هو أن معجزة القرآن ترجع إلى فصاحتها في نظمها الفريد.

«و أقوى الأقوال عندي قول من قال انما كان معجزا خارقا للعادة لاختصاصه بالفصاحة المفرطة في هذا النظم المخصوص دون الفصاحة بانفرادها، و دون النظم بانفراده و دون الصرفة، و إن كنت نصرت في شرح الجمل القول بالصرفة على ما كان يذهب إليه المرتضى رحمه الله من حيث شرحت كتابه فلم يحسن خلاف مذهبه.» (المصدر، ص ٢٧٨)

في هذه العبارة، يُصرّح صراحة أن صرف النظم نظريه الصرفه ليس معجزاً، و كان السبب في «الجمل» هو اكد نظريه الصرفه، هو انه كان في مقام شرح وتفسير كتابه. يستمر الشيخ بشرح قضيتين رئيسيتين: أولاً ، لماذا ينبغي أن يعزى الدلالة الرئيسية للتحدي إلى فصاحتها وأ نظمها الفريد؟ وثانياً، ما هو الدليل على التفوق المطلق للقرآن الكريم من هذين الاتجاهين إلى أعماله المعاصرة؟ المقطع التالي يعطي الإجابات على السؤالين أعلاه:

«و الذي يدل على ما قلناه و اخترناه أن التحدي معروف بين العرب بعضهم بعضاً، معتاد و يعتبرون في التحدي معارضة الكلام بمثله في نظمه و وصفه لأنهم لا يعارضون الخطب بالشعر و لا الشعر بالخطب. و الشعر لا يعارض إلا بما كان يوافقه في الوزن و الروي و القافية، فلا يعارضون الطويل بالرجز، و لا الرجز بالكامل، و لا الربع بالمتقارب، و انما يعارضون جميع أوصافه، و اذا كان كذلك فقد ثبت ان القرآن جمع الفصاحة المفرطة و النظم الذي ليس في كلام العرب مثله. فاذا عجزوا عن معارضته فيجب ان يكون الاعتبار بهما. فأما الذي يدل على اختصاصه بالفصاحة المفرطة فهو ان كل عاقل عرف شيئاً من الفصاحة يعلم ذلك، و ان ما في القرآن من الفصاحة يزيد على كل فصيح.»

و كيف لا يكون كذلك و قد وجدنا الطبقة الأولى قد شهدوا بذلك، و طربوا له. كالوليد بن المغيرة، و الأعشى الكبير، و كعب بن زهير، و لبيد بن ربيعة، و النابغة الجعدي، و دخل كثير منهم في الإسلام ككعب و النابغة و لبيد. و هم الأعشى بالدخول في الإسلام فمنعه أبو جهل من و ذلك و فزعه، و قال له انه يحرم عليك الأتبيين الزنا و الخمر. فقال أما الزنا فلا حاجة لي فيه لأنني كبرت و أما الخمر فلا صبر لي عنه، فانظر و أنته المنية و اخترمته دون الإسلام [...]» (الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، ص: ٢٧٩؛ ايضاً انظر: الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد، ٢٧٢-٢٧٥).

يقدم الشيخ الطوسي، في تفسيره القيمه للقرآن الكريم، التبيان في تفسير القرآن، مبررات أخرى لمعجزة القرآن الكريم ، بسبب نظمه الفريد و فصاحته ، و يستحق الاهتمام.

هو أشار إلى الآية ١٣ من سورة البقرة واستشهد بالأدلة التاريخية لغرض شرح معنى هذه الآية و يقول: إذا كان من الممكن للوثنيين أن يحيبوا للتحدي القرآن، فلن يكون هناك أي سبب لهم للسعي إلى إزالة النبي (ص) من خلال الفوز بالروح والممتلكات و هنا يقال أيضا أن المذهب الرئيسي في التحدي هو الإسناد إلى فصاحة القرآن في

هذا النظم الفريد. ويعتبر القرآن الكريم من هذه الجهة معجزة:

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَنْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) هذه الآية صريحة بالتحدي و فيها قطع لاعتلال المشركين و بغيهم، لأنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن قالوا: إن ما فيه من الاخبار كذب اختلقه و اخترعه أو قرأ الكتب السالفة، فقال الله تعالى لهم: افترؤا أنتم مثله، و ادحضوا حجته فذلك أيسر و أهون مما تكلفتموه، فعجزوا عن ذلك و صاروا الى الحرب و بذل النفس و المال و قتل الآباء و الأبناء. و لو قدروا على إطفاء أمره بالمعارضة لفعلوه مع هذا التقريع العظيم. و فيه دلالة على جهة إعجاز القرآن و أنها الفصاحة في هذا النظم

المخصوص، لأنه لو كان غيره لما قنع في المعارضة بالافتراء و الاختلاق.» (التبيان في تفسير القرآن، ج ٥، ص: ٤٥٧).

فيما يتعلق بما قيل عن معجزة القرآن الكريم من حيث علاقة الشيخ الطوسي بالموضوع ، نجد أن:

أولاً ، يحرص الشيخ على جلب وجهات نظر مختلفة وتقييمها. على عكس القدماء الذين يقبلون عموماً واحدة من نظريات المرتبطة بعجاز القرآن، الشيخ في نفس ذلك الوقت يعتقد ان مغزى دلالة التحدى هو فصاحته المفرط ولكن في نفس الوقت يقول فإن نظامها الفريد والخاص هو أيضاً معجزة. بالطبع، ينص على أن مجرد النظم لا يمكن ان يكون معجزة و يجب أن يؤخذ بالتأكيد في الاعتبار بالإضافة إلى فصاحته المفرطة؛ ثانياً، إن أفعال الشيخ وأخلاقه جديرة بالثناء الشديد في التعبير عن آراء شيخه وقرينه، شريف المرتضى. الشيخ في "شرح الجمل"، رغم أنه يعبر عن نظريته الصرفة لكن هذا البيان ليست مجرد مسألة نقد، لكنها تعطي الجمهور انطباعاً بأن الشيخ قبل وجهة نظر الشريف المرتضى لكن في كتب الشيخ الأخرى، يستطيع أن ينفذ نقده للنظرية. ثالثاً ، نقد الشيخ الطوسي لنظرية الشيخ كان إيجابية وغير مربحة. بعبارة أخرى، بدلاً من التعبير عن عيوب وجهة نظر السيد مرتضى، يقدم الشيخ أسبابه لوجهة نظره الخاصة. سيتمكن كل طالب متفطن رفض النظرية الصرفة بدقة لهذه الأسباب؛

رابعاً، ما يعكس سلطة الشيخ الطوسي في دخول النظرية الأكثر قيمة في الماضي هي سلطة الشيخ في الحجج وعدم وجود توجه فئوي وديني في التعبير عن الآراء و النظريات. لا يمكنك رؤية التوجهات المذهبية في أي مكان في حججه و استدلالاته. نفس الشيء يجعل الشيخ مشيراً و مرجعاً إلى كل الطوائف الإسلامية. النظرية الصرفة في هذا الصدد جديرٌ بالاهتمام؛ لأنها النظرية التي طرحها أبرز علماء الشيعة والسنة، ولها أسباب مختلفة لرفضها أو قبولها. يمكن أن يُعزى دخول الشيخ في النزاعات المحيطة بمثل هذه النزاعات بين الأديان إلى السلطة الكاملة للشيخ.

الخاتمة:

في هذا المقال ، سعيانا إلى إظهار أن الشيخ الطوسي كان رائد سلطة العقل. لذلك، تستحق النتائج التالية الاهتمام:

١- في هذا الصدد ، أظهرنا أولاً أنه كان نقطة تحول في تغيير نهج التفسير من التفسير الاثرى إلى التفسير العقلاني. تقريب الأديان في مواجهة تفسير الشيخ الطوسي من خلال الآيات القرآنية بارز جداً. إن الإرجاع إلى الصحابة و التابعين، والاهتمام بكلمات ومعاني الكلمات و القراءات، والقبول الواسع النطاق بالمواضيع اللفظية، هو أحد أهم جوانب تفسيره.

٢- إن الشيخ الطوسي، على الرغم من امتلاكه نظرة فكرية واجتهادية، يدرك الجوانب المنهجية العلمية في عصره ويستخدم عملياً لهم. إن الآية ٢٢ من سورة البقرة و منهجه في التعامل مع قضية كروية الأرض، وكذلك سكونها، مهمة جداً. على الرغم من أن العديد من أسلافه ، ومعاصريه ، وماضيه الحديث واجهوا أخطاء كبيرة في التعامل مع هذه الآية، فقد قلل الشيخ من إمكانية الخطأ إلى حد كبير عن طريق الحذر العلمي والحذر.

٣- النظرية الصرفه هي أيضاً واحدة من المجالات النظرية الأخرى التي وجدها علماء العالم الإسلامي أنفسهم ملتزمين بالتفكير في وجهة نظرهم. هذه النظرية هي واحدة من الأفكار العلمية القليلة التي كانت مؤمنة وخرافية ومناهضة لكل من السنة والشيعه.

النظام و الجاحظ من علماء السنة والسيد مرتضى والشيخ مفيد من الشيعة هم من أهم دعاة هذه النظرية. لكن، لدى الجاحظ والشيخ المفيد بعض الانتقادات لهذا الرأي. ومع ذلك، فإن نهج الشيخ الطوسي جدير بالاهتمام الخاصه. رأي الشيخ الطوسي فيما يتعلق بمعجزة القرآن هو أن فصاحته المفرطة في هذا النظام الفريد هي معجزة القرآن. في

الواقع، من خلال قبول هذا الرأي والتعبير عن أسبابه في الفصاحة المفرطة والنظام الفريد للقرآن الكريم، فإن أشكال نظرية الصرفه سيكون واضحة أيضاً.

٤- إن نوع لقاء الشيخ الطوسي مع الآيات القرآنية والطريقة العقلانية والمحافظة على اللحظات المنهجية قد تسبب في بقاء سلطته ليس فقط بين الشيعة بل وأيضاً بين جميع المسلمين الذين تم الحفاظ عليهم.

المصادر:

- اشعري، ابوالحسن، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، دار فرانز شتايز، بمدينة فيسبادن (ألمانيا) الطبعة: الثالثة، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

- طبرسي، فضل بن حسن، مجمع البيان، تهران، ناصر خسرو، ١٣٧٢ش؛

- طوسي، محمد بن حسن، التبيان في تفسير القرآن، دار احياء التراث العربي، بي-تا؛

- طوسي، محمد بن الحسن، الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد، انتشارات كتابخانه،

بي-تا

- طوسي، محمد بن الحسن، الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، دار الاضواء، بي-تا

- عبد الجبار، المغني في ابواب التوحيد و العدل، ج ٩، چاپ توفيق طويل و سعيد

زايد، قاهره، بي-تا.

- علم الهدى، على بن الحسين، الموضح عن جهه اعجاز القرآن، تحقيق: محمد رضا

الانصاري، مشهد: موسسه الطبع و النشر التابعه للأستانه الرضويه المقدسه، چاپ

دوم: ١٤٢٩ق.

- علم الهدى، على بن الحسين، تفسير الشريف المرتضى المسمى ب: نفائس التأويل،

لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٣١ق

- فخر رازی، محمد بن عمر، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار إحياء التراث

العربي، لبنان-بيروت، ١٤٢٠ق؛

-
- كريمي نيا، مرتضى، الوزير المغربي ومنهجية المصاييح في تفسير القرآن ، رساله دوكتوراه ، جامعة طهران، ١٣٩٤.
 - لجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٣٨.
 - وزير مغربي، حسين بن على، المصاييح، محقق: عبدالكريم بن صالح بن عبدالله، رساله دكتورى، جزء اول، ١٤٢١ق؛